

# عاش في ظل الغياب

## شهادات

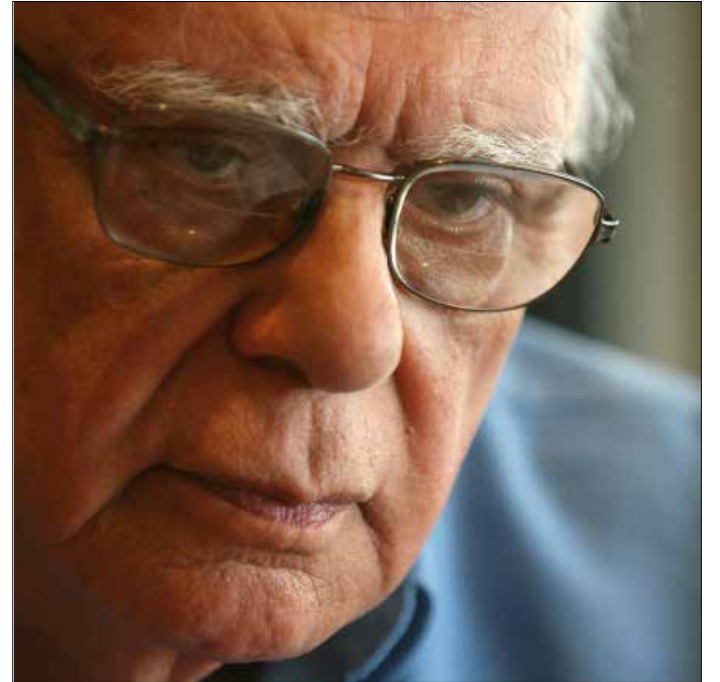
### تابع الحب بعد الموت

محمد علي شمس الدين

بموت ياسين رفاعية، ينفرط عقد زمن جميل كنا عشناه معاً. كنا متجاورين في الزمن ومتجاورين في السكن ومتجاورين في تبادل أسرارنا وحفظها حتى أوان اللحظة المناسبة.

فما بيني وبين ياسين وبيننا وبين أمل جراح، وما كان بين أولادنا، أمر روائي بحق. ولست أدري ما ذكره ياسين رفاعية في روايته التي كان على أهبة توقيعه ولم يفعل بعد أن أجبره الموت على توقيع روايته. هذه الرواية اسمها «من خرم الأبرة»، وكان قد نقل لي اسمها قبل أسبوع من موته. كان في المنزل، ولم يكن متأهباً للرحيل. كل ما في الأمر، كما قال، هو أنه سيدخل المستشفى ليجري عملية في عينه اليمنى بعد أن أجرى عملية في عينه اليسرى.

وكان ممثلاً برغبة الحياة ودفق الكتابة. قال لي إنه ستصدر له عن «دار الساقى» ثلاث روايات من بينها «من خرم الأبرة»، وقال لي إنني مذكور في الرواية كشخص من أشخاصها بالاسم. وأنتي مدعو من الآن لحضور توقيع الرواية. لم أرغب في سؤاله عن ملامحي في الرواية، بل احتفظت بذلك إلى القراءة. وها أنا الآن أقرأ موت صديقي ولم أقرأ روايته بعد.



(مروان طحطح)

## شيخوخة الصف الثاني

حسين بن حمزة

ووجهات نظر وأسرار شخصية حول تلك التجارب. تلك الانطباعات والحكايات والسرديات نسربت بالمذاق البسيط نفسه إلى قصصه ورواياته، وخصوصاً الأخيرة منها. ولعل معظمنا قرأ تلك الروايات التي أقامت في الصف الثاني أيضاً، ولم تكن حاضرة في الواجهة التي تضم أحدث الروايات وأكثرها راهنية على مستوى الكتابة.

وفاة رفيقة دربه الشاعرة أمل جراح (1945 - 2004) أفقدت رفاعية تلك الصحبة الثمينة التي كانت ستؤنس كهولته في المقلب الأخير من العمر. الزوجة الراحلة كانت حاضرة باستمرار، وكان باستطاعته أن يُقحم اسمها وحنينه إليها في أي حديث معه. في سنواته الأخيرة، كان يتحدث عن قصص حب يعيشها، ويبالغ ربما في حضور تلك القصص التي وجد فيها منافذ ضيقة ومنعشة لوحشته المتمادية التي قضاها وحيداً في منزله في نهاية شارع الحمراء. الشارع الشهير الذي انحصرت حياة ياسين رفاعية وكتاباته على أرصفتها ومقاهيه وصداقاته. هناك، كتب معظم أعماله عن الحرب وعن رأس بيروت وعن كتاب وشعراء يرتادون مقاهي الشارع، وعن قصص حب بين كهول وفتيات في مقتبل العمر.

ظل ياسين رفاعية يعرف من ماضيه ومن سيرته ومن سيرة بيروت التي احتضنته. كتب شعراً أو نصوصاً ذات نفس شعري كما كان يسميها، وكتب القصة والرواية، وظل يعمل في الصحافة، وأصدر أكثر من عشرين كتاباً. كتب عن زوجته، وأعاد نشر روايتها «الرواية الملعونة» التي فازت بجائزة مجلة «الحسنة» سنة 1968. وفي كل ذلك، ظل ياسين رفاعية يشبه نفسه وذكريته وسيرته. كان كل تلك الكتابات ترابطت فيما بينها بقوة تلك الذاكرة وتلك السيرة. سيرة وذاكرة لم يُكتب لهما الالتحاق بالتطورات والانعطافات التي حدثت في الرواية المعاصرة، ولم يُكتب لصاحب السيرة والذاكرة أيضاً أن يعيش شيخوخة كتاب الصف الأول، وأن يحظى بصيت وبريق وترف رحيل هؤلاء أيضاً. رحل ياسين رفاعية في الظل تقريباً. شيخوخته ومرضه ساهما في ذلك التوارى البطيء الذي اكتمل أمس وهو في الثانية والثمانين.

مات ياسين رفاعية. بعض الموت مبرك أحياناً حين يتعلق بكاتب ظل حضوره متداولاً داخل ما يمكن أن نسميه كتاب الصف الثاني. لم يكن الكاتب السوري الذي أقام في بيروت منذ الستينات على الهامش تماماً ولم يكن في المتن تماماً أيضاً. كان

هذا التآرجح متاحاً، ولا يزال متاحاً في بيروت وفي صحافتها وفي مقاهيها، وفي فقاعتها الفريدة التي لا تزال تحتوي على هواء مختلف وأكثر حيوية من العواصم العربية الأخرى.

جاء رفاعية إلى بيروت في رحلة قطعها، قبله وبعده، سوريون وعراقيون وفلسطينيون ومصريون وسواهم من الكتاب والشعراء العرب. كانت بيروت مكاناً لصناعة الأسماء أو وصلها أو منحها اعترافاً ومساحات مفتوحة أكثر.

كان صاحب «الحزن في كل مكان» (1960)، باكورته القصصية التي نشرها في دمشق مستدرجاً إلى هذا المناخ الفاتر بكل النبرات والطموحات. عاش في سخاء تلك الحقبة وثرائها، وارتبط اسمه بأسماء عديدة ظل حتى أيامه الأخيرة يستعيدوها داخل مرويته عن بعض خبايا وأسرار تلك الحقبة، بل إنه ظل منتعماً في كتاباته ونصوصه إلى ذلك الزمن أيضاً، وبدا عالقاً في سياق ولغة كانت سائدة في زمن أقدم حتى من ستينات بيروت ذاتها. كان رفاعية حكاية ورواياً شفوياً يمزج بين بساطة الحديث وخصوصية الزمن الذي يروي عنه. يمكنه أن يحدثك طويلاً عن غسان كنفاني وغادة السمان وليلى بعلبكي وسامي الجندي وزكريا تامر وعصام محفوظ... ويبتهج بحيازته لانطباعات

## عن الجناس الناقص بين ياسين والياسمين الدمشقي

شوقي بزيم

كم هو شاق على المرء أن يكتب عن الموت «الطازج» لأحد أقرب الأصدقاء إلى قلبه، كما هو الحال مع ياسين رفاعية. وكم هو صعب ومدعاة للحرج والمرارة أن تدعى إلى رثاء شخص عزيز ولصيق بحياتك، فيما جثمانه لم يوار التراب بعد، وفيما أنت منشغل بترتيبات موته وإخراجه من المستشفى ونشر نبأ رحيله حيث يجب أن ينشر. كما أنّ عليّ من جهة ثانية أن أصدّق النبأ الفاجع كي تصدقني اللغة وتمنحني ما أشاء من المفردات التي تليق بغداحة الخسارة وغصة فقدان. ذلك أنّ علاقتي بياسين تعود إلى أكثر من أربعة عقود من الزمن، كانت أكثر من كافية لمنح صداقتنا فرصاً ومطبات كثيرة لاختبار رسوخها المتجدد يوماً بعد يوم، ولتحويلها إلى مناسبة مديدة للمنامة وتبادل المسرات والأحزان واحتساء ما أمكن من لذات الحياة وشقاءاتها. وحين انتقلت إلى منزلي الجديد في رأس بيروت، تكفلت المصادفة من جهتها أن توثق ما بيننا من مودة، حيث كنت أستطيع أن أطل من إحدى النوافذ على شرفة منزل ياسين التي زينتها زوجته أمل جراح بنباتات الفل والغاردينيا وبالياسمين الذي كان شذاه العطر يعود بالزوجين الكاتبين إلى مراع دمشق، وأحيانها الفواحة. بقدر ما كان يصنع مع اسم صاحب «مصراع الماس» جناساً شبيه كامل يدفعني على سبيل الطرف إلى أن أسميه «ياسمين رفاعية». لم تكن الكتابة وحدها هي ما ربطني بياسين، ولا تلك الشرفة الزاهية التي أطلقت أمل جراح من وراء نباتاتها المعلقة زغرودتها الحنون، محتفياً بزفافي المفاجئ قبل 13 عاماً، مغالبة مرضاً خطيراً في القلب وضع حداً لحياتها القصيرة بعد عدة أشهر. ولا القدر الذي جعلنا نلوذ بالمكان عينه حيث كان كل منا يخلد إلى ركنه المنعزل في مقهى «ببببو» لكي يعاقر أحداً لغة الشعر ويصنع الآخر مصائر مناسبة لأبطال رواياته. بل كان ثمة شيء يتصل بالكيمياء، وشيء آخر يتصل بالموقف من العالم، وبعشق الجمال حيثما انعكست تجلياته، و بانتزاع الضحك من جذور المفارقات، وبالاحتفاء بالأنوثة الكونية التي تجد في المرأة مراتها الأصفى وظهيرها الساحر. ولعل فرح ياسين بالحياة وانجذابه الواله إلى عقد صلات المودة مع ينابيع العذوبة الأم، هما ما جعلنا آهله بالصدقات، وهما ما دفعا شاعراً رائعاً وفائق الحساسية كأنسي الحاج إلى جعله جليسه الأثير الذي يأنس إليه كلما انسدت أمامه سبل الفرح والابتهاج. ولعل أنسي المتردد باستمرار إلى منزل ياسين كان، وهو يكتب «الوليمة»، يرى في صاحب «حب شديد للهجة» التمثل الأصدق لشغفه بحب العالم، ولرغبته في التهام أطايبه من ظاهر القشور حتى صميم النواة.

تري ماذا سيقول؟ تري أي صفحة من حياة ورواية وشعر طويت هذا اليوم؟

تري أيلتقي بأمل جراح من جديد؟ وكيف؟ تري أيسلم لي على امرأة أخرى هو يعرفها وأنا أعرفها ولا أحد سوانا يعرفها وماتت.. أيراها هناك؟

لقد جلست الجميلة بيننا في رحلة إلى المغرب... وكان أن... ثم ماتت الجميلة. ياسين وحده يعرف ذلك. ولست أدري إذا كان ذكر ما كان في روايته.

ياسين رفاعية شاعر في أصل روايته. شغفه بالشعر قرنه بأمل جراح. وهذا الشغف هو الذي عقد بيني وبينه صداقة حياة. والحياة بمفاجأتها، التي عاشها ياسين كانت التربة التي نمت فيها رواياته. وقد كان الرجل محاطاً بأمرين ملتبسين: الحب والموت. لقد أحب الرجل حتى الثمالة. أمل ماتت وابنته (وكانت صديقة ابنتي آسيا) ماتت. ولم يبق له سوى بسام.

أعطى ياسين لكل أصدقائه من ذاته. وهذه الكتابة عنه في يومه الأخير ستكون أول الإشارات إلى إبداعه الغزير الحي. إبداعه الذي لا ينطوي مع جسده في قبر لا أعلم أين سيكون. في دمشق التي غادرها أم في بيروت التي حضنت أيامه. تابع يا ياسين الحب بعد الموت.

كان ياسين رفاعية، بقامته الفارعة وجسمه الممتلئ، نهراً عارماً من الحكايات يمشي على قدمين. كان خزاناً من السرد والاستعدادات الشفوية لشوارد الذكريات التي لم يكتب منها، على غزارة ما أنتجه، سوى القليل. صحيح أن سيرته الشخصية كانت حافلة بالانتصارات والنكسات، بالمفقدات اللقى، بالأمل وخيبات الأمل، غير أنه كان يظفر في الحالتين بغنيمة القصة، وبالتحويل كل ما خبره إلى جنة من المرويات التي كان يعرف كيف يعيد اختراعها بذكريته المتوقدة ورشاقته في تولى الحكايات. وكان كريماً في كل شيء، في الهدايا التي يغدقها على نساته دون حساب، كما في مظهره الاحتفالي. في أناقته البانخة، كما في لغته المتدفقة التي يسيل لها سامعته وسامعيه. وكنا نشعر، نحن أصدقاءه ومجالسيه، بأن رواياته وقصصه التي أصدرها بالعشرات لم تكن سوى الجزء اليسير مما يخفيه طي نفسه، أو مما حال الموت بينه وبين إنجازها في كتب. فقد كان قادراً على التقاط كل ساحة من سوانح عيشه، وتحويلها إلى عمل سردي. والنساء اللواتي وقع في عشقهن، لم يكن في الواقع سوى ذرائع مختلفة للوقوع في عشق اللغة، أو لتحويلهن إلى روايات.

أما كهولته الزاحفة وشعره الذي اكتسى بالبياض، فلم يخفها أبداً من هيجان روحه، ولا من وسامته المهيبه والمشبعة بالظرف. ولا من لمعان عينيه الراغبين في افتراس كل ما تقعان عليه من مباحج وملذات.

كأبطال الأساطير عاش ياسين رفاعية، وكأبطال الأساطير قضى ياسين بجلطة عنيفة في الدماغ، في أحد مستشفيات بيروت. وغريباً وشبه وحيد، ذهب الفارس الدمشقي، الذي اتخذ منذ يفاعته من بيروت التي أحبها سكناً له، إلى حتفه الأخير، بعدما أنفق كل ما في جعبته من نهم للحياة، ولم يدخر قروشه البيضاء لأيامه السود.

وكما حدث لبدر شاكر السياب، انفض عنه معظم أصدقاء زمن الرفاه، ولم يتحلق حوله على سرير الموت إلا رفاق ستة: أخته نجاح، وابنه بسام، وزينة سعيفان، ورنيم ضاهر، ورفيق لابنه الوحيد لا أنكر اسمه، وكتب هذه السطور. لا شيء في منزله سوى مكتبة بيته، وبعض لوحات أصدقائه من الرسامين، وصور أمل جراح، وبعض النساء اللواتي أحبهن، وشتلات الغاردينيا والياسمين التي لن تجد بعد أيام من يشاطرها الدموع قبل أن تستسلم للذبول. أما أنا، الناظر كلما خرجت من البيت نحو شرفته المقابلة، فلن أجد بعد من يرافقني في أمسيات الشعر، أو يشاطرنني الجلوس في ركن المقهى، أو يعاتبني على التخلف عن زيارته كلما استبد به الحنين وأثقله جليد العزلة.